الأحسن برغم ورود بعض آيات القرآن على غير هذا النمط في التركيب ، فلم يراع فيها تقديم المقدم ولا تأخير المؤخر ، كقوله تعالى : ﴿ أَ فَلَمْ يَرَوْا إلى ما بَيْن أيْديهِمْ وما خَلْفهم مِنَ السَّماءِ والأرْض إنْ نَشَأ نَخْسِف بِهِمُ الأرْضَ أوْ نسْقِط عَلَيْهِمْ كسفًا مِنَ السَّماءِ إنَّ في ذَلِكَ لآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنيب ﴾ ولو قدم تفسير المقدم في هذه الآية ، وأخر تفسير المؤخر ، لقيل : إن نشأ نسقط عليهم كسفًا من السماء أو نخسف بهم الأرض [١].

وإذا كان الإخلال بالترتيب له نوع قبول تبعًا لسياق الكلام ونظمه ، فإن سوء التفسير أو فساده قبيح لا وجه له ، حيث لا يكون هناك تناسبٌ بين الكلام وما يفسره ، وذلك كقول بعضهم :

فَيا أيُّها الحَيْرانُ في ظُلْمَةِ الدُّجى وَمَنْ خافَ أنْ يَلْقاهُ بَغْيٌ مِنَ العِدا
تَعالَ إلَيْهِ تَلْقَ مِنْ نورِ وَجْهِهِ ضياءً ومِنْ كَفَّيْهِ بَحْرًا مِنَ النَّدى

فحركة الذهن من المعنى إلى مفسِّره كانت تقتضي أن يقول إزاء بغي العدا ما يناسبه من النصرة والإعانة ، أو ما جرى مجراهما ليكون ذلك تفسيراً له ، كما جعل إزاء الظلمة الضياء وفسَّرها به ، فأما أن يجعل إزاء ما يتخوف منه بحرًا من النَّدى فإن ذلك غيرُ لائق [٢].

ويبدو أنه قد سيطر على النُّقّاد القُدامى – من جرّاء ذلك – إحساسٌ بضرورة اكتمال الدلالة ونضجها « والبيان لا يكون إلا بالإشباع ، والشفا لا يقع إلا بالإقناع ، وأفضل الكلام أبْيَنُه ، وأبينه أشده إحاطة بالمعاني ، ولا يُحاط بالمعاني إحاطة تامة إلا بالاستقصاء . » [٣]

(١) ابن الأثير : المثل السائر ، ج ٣ ، ص ١٧٣ . (٢) المرجع السابق ، ص ١٧٧ ، وأبو هلال : الصناعتين ، ص ٣٣٨ . (٣) المرجع السابق ، ص ١٨٣ .